القصص الديني

الحلقة الأولى
قصص الأنبياء

قدرة الله

18

عبد الحميد جودة السحار

١

مرَّ رجلٌ من الصَّالِحينَ من بنى إسرائيلَ على قَرْيةٍ مُخَرَّبَة ، ليسَ فيها أحدٌ حىّ ، لا من الناسِ ، ولا مِنَ الحيوان .. فقال : كيفَ يُحْيِى اللّه هذه القريةَ بعدَ موتِها ؟

عندئذٍ أماته اللّه ، وأماتَ حِمارَه الذى كانَ يَرْكَبُه ، وظلَّ الرَّجلُ ميّتًا هو وحماره مائةَ سنة .

ثم أحياهُ اللّه وسألَه : كمْ من الزَّمَنِ لَبِثْتَ هُنا ؟

قال : يومًا أو بعضَ يوْم .

قال له اللّه : بل لبِثْتَ مائةَ عام .. ومع ذلك فإنَّ طَعامَك الذى كانَ معَك وشرابَك لم يَفْسُدْ ولم يتعفَّنْ . ولكى تتيَقَّنَ أنَّ لك مائةَ سنة ، انْظُرْ إلى حِمارِك .

ونظر الرجلُ إلى حماره ، فرآه عِظامًا بالية .

قال له اللّه : الآن سأُحْيى لك هذا الْحِمار . فانظرْ كيفَ تَدِبُّ الحياةُ فى هذهِ العِظام ، وكيف تُكْسَى باللّحم ، وقد أحْيَيتُك بعدَ موتِك ، لتكونَ علامةً للناسِ على قُدْرَةِ اللّه .

واستمرَّ الرجلُ ينظرُ إلى الحمار والحياةُ تَعودُ إليه ، وعظْمُهُ يُكْسَى باللّحم الحىّ ، متعجبا من صنع اللّه وقدرته ، حتى إذا نهض الْحِمارُ واقفا كما كان ، قال الرجل : يا ربّ ، أَعْلَمُ أنك على كل شىء قدير .

٢

كان قارونُ من قومِ موسى ، وقد أَعْطاهُ اللّه أموالا عظيمة ، إلى حدِّ أنَّ مفاتيحَ الكُنوزِ التى يملِكُها لم تكنْ جماعةٌ قويةٌ من الرِّجالِ تستطيعُ حَمْلَها ونَقْلَها .

ولما رأىَ قارونُ أنّه يَملِكُ هذِه الأَموالَ العظيمة ، تكبَّر على قومِه وطغَى ، وصار رجُلاً ظالمًا لا يَخافُ اللّه .

فقال له العقلاءُ من قومه : لا تغترّ بالدُّنْيـا هكـذا ، واعْمَل أعمالا صالِحةً تَنْفَعْك عندَ اللّه .

قال : هل تُريدُونَ منى ألا أتمتّعَ بمالى ؟

قالوا له : تَمَتّعْ ولا تنسَ نصيبَك من الدُّنْيا . ولكن تذكّرْ أنَّ اللّه هو الـذى أعطـاكَ هـذا المـالَ كلـه ، لا لتتمتّعَ بـه وحـدَك ، ولكـن لِتعْمَـلَ أعمـالاً صالحـة ، وتسـاعِدَ الفقـراءَ والمرضَى ؛ وتكـون رجُـلا صالِحًـا رحيمًا متواضعا .

قال لهم : لقد جَمَعْتُ هذا المـالَ بعقلـى وعلمِـى . فليسَ لأَحدٍ أن يُحاسِبَنى عليه ، أو يَطْلُبَ شيئًا منه .

وفى يوم لبسَ قارونُ ثيابه المزركَشة ، المزيَّنَة بالذّهبِ والجواهِـر ، وركِـبَ عربتـه التـى تجُرُّهـا الخيْـلُ

العظيمة ، وخرج على قومِه فى زينتِه .

« قال الذين يُريدُون الحياةَ الدنيا : يا ليتَ لنا مثلَ ما أُوتِىَ قارون ، إنّه لذو حظٍّ عظيم » .

ونَسُوا أنَّ قارون مع غِناه رجلٌ ظالمٌ مغْرور .

وقال المؤمنونَ باللّه : « ويْلكم ! ثوابُ اللّه خيرٌ لمن آمنَ وعَمِل صالِحًا » . فلا تَتَمَنَّوا أنْ تكونوا مثلَ قارون ، ولكنْ تَمنَّوْا أن يُعطِيَكم اللّه من فَضْلِه فتعْمَلوا أعمالا طيبة صالحة ، وتَنْفَعوا الناسَ بأمْوالِكم ، ولا تَكْنِزُوها كما يَصْنَعُ قارون .

* * *

وباتَ الناسُ وأصْبَحُوا وإذا هُمْ يَجدُون قصرَ قارونَ مَدْكُوكًا غائصًا فى الأرض ، بكل ما فيه من مخازِنِ المال ، ومن الفِراشِ الغالى ، والأوانىّ المُذْهَبة ، وأدواتِ الزينةَ والجواهِر .. وكلُّ ما فيهِ

ومن فيه .

عند ذلك وقف الذينَ كانوا يتمنّون أن يُصْبِحُوا مثلَه يقولون :

ــ لقد تمنّيْنا أن نكونَ مثلَ قارون . فأيْنَ هو قارون ؟ لقد خَسَفَ اللّه به الأَرضَ ، وبقصرِهِ وأموالِه وجواهِرِه . فالحمدُ لله أنّنا لم نكُنْ مِثْلَه . وإلا خَسَفَ اللّه بنا الأرضَ مثْلَه . إن اللّه لا يحبُّ المتكبِّرين .

٣

كان لرجلٍ صالحٍ حديقةُ فاكهة ، وكان يَنْتَظِرُ حتى تُثْمِر ، وتَنْضَجَ ثِمارُها ، ثم يدعُوَ الفقراءَ إليها ، ويُقطِّعَ الثمارَ ويُعْطِيَهُم من كلِّ نوعٍ منها .

وكان اللّه يُبارِكُ لهُ في حديقَتِه ، فتطرَحُ ثمرا كثيرا لذيذا . وكلّما زادَ ما يُعْطِيه الفقراءَ من الحديقة ، زادَ

ثمرُها فى السنةِ التالية .

وعاشَ الرَّجُلُ سعيدًا بهذَا العملِ الذى يَعْمَلُه حتى مات .

وورِثَ الحديقةَ أبناءُ هذا الرجل ، فقالوا لأنْفُسِهم : لماذا نُعْطِى ثمارَ حديقَتِنا للفقراء ؟ إنها حديقتُنا نحن لا حديقَتُهم . فمنذُ هَذا العام لن نُعْطِىَ من ثمارها أحدا .

وكان فيهم ولدٌ عاقلٌ صالح ، فقال لهم : اتّقوا اللّه ولا تَقْطَعوا عادَةَ أبيكم الطّيِّبة ، فإن اللّه يُعْطيكُم بدلَ ما تُعْطُونه الفُقَراء .

قال الباقون : لا يا سيدى ! فإنّ الذى يُعْطيه اللّه لنا هو حقُّنا نحن ، وليس حقَّ هؤلاء الناس الأجانب . فإذا أخَذُوا منه شيئا فإنّ نصيبَنا يَنْقُص . وواللّه لن نُعْطِىَ منها فى هذا العام أحدا .

وعندما جاء الليلُ أرسل اللّه على الحديقةِ عاصفَةً

مُحْرِقَـةٌ ، أحرَقَتْهـا وتركَتْهـا سـوداءَ كـالْفَحْم ، وأصحابُها لا يَعْلَمون .

أما هُمْ فـاتَّفَقُوا على أنْ يَذْهَبوا في وجْهِ الفَجْر لِيَقْطَعُوا الثِّمار ، ولا يُخْـبِرُوا أحـدًا مـن الفُقَـراء والمساكين . وقُبيلَ الصُّبْحِ نادَى بعضُهم بعضًا سـرًّا : تعالَوْا . تعالَوا . ومشَوْا على أطْرافِ أصابِعِهم حتى لا يُحِسَّ بهم أحد ، وكَتَمُوا أنْفَاسَهم وهُـمْ يَمْشُـونَ سِرًا ، ووصَّى بعضُهم بعضًا بألا يتكلَّـمَ أو يتنفسَ أو يَكُحَّ أو يَتَنَحْنَح ، حتى لا يُحِسَّ بهم أحد .

وفتحوا البابَ ودخلُوا ، ثم أغْلَقُوه عليْهم بهدوء . وقالوا : الحمدُ لله لم يَشْعُرْ بنا أحدٌ من المساكين .

ولكنَّهـمْ حـينَ رأَوُا الأشـجارَ وجَدوهـا مَحْروقَـةً مسوَدّة ، وليسَ فيها ثمـر . قـالوا : أوْهِ ! لقـد ضلَلْنـا وتُهْنا عن حديقَتِنـا بسببِ الظَّلام . إنِ هـذه ليست

حديقَتنا . فماذا نَصْنَع ؟

قال الولدُ الطيِّب : بل إنها حديقَتُكُم عَيْنُها ! وقد أحرَقَها اللّه لكُم لأنكُم أردْتُم حِرْمانَ المساكين منها .

فاسوَدَّت وجوهُهم من الْحُـزْن والأَلَم ، وراحَ كلٌّ منْهُم يَلومُ أخاه ، ويقول له : أنتَ الذى أشرت علينا بهذِهِ الفكْرة الملعُونَة ، فيتبرّأُ كُلٌّ واحدٍ من التُهْمَةِ ويقولُ للآخر : بل أنتَ فعلت .

وفى النهاية قال لَهم أخُوهُم الطيِّب : لا فائدةَ الآن من هَذا الكلام . استغْفِروا ربَّكُم لعلّه يعفُو عنكم ويرحَمُكم .. « قالوا يا ويلنا ! إنا كنا طاغين . عسى ربنا أن يُبْدِلَنا خيرا منها ، إنّا إلى ربنا راغبون » .

٤

كانت قبيلَةُ سَبأ تَسْكُنُ فى بلادِ اليَمن ، حيثُ تَنْزِل الأمطارُ الكثيرة ، وتَضيعُ بلا فائِدَة .

فأقاموا خزّانًا ضَخْمًا للمياهِ بين جَبَلَيْن ، وأقاموا عليه السُّدُود ، ليَخْزُنوا فيه مياهَ الأمطارِ حين تنزل ، ثم ينتفِعُوا بها طولَ السَّنة .

وبذلك أصبَحَتْ هذه الجهةُ خِصْبَةً عظيمةَ العُمْران ، وامتَدَّتِ الحدائقُ عن اليمينِ وعن الشِّمال ، فيها من كل الثّمرات ، ومن كلِّ الأنواع ، سهلةُ الرىّ ، جميلة المنْظر .

ونشأتْ بلادٌ كثيرةٌ متقاربة ، يُسافِرُ إليها المسافِرون وهم مُطْمَئِنُّون ، لا يَعْتَدِى عليهم أحدٌ فى الطريق ، لأَن البلادَ قريب بعضها من بعض ، ومعمورة ، والمرورُ بينها متواصل ، فلا يستطيعُ

اللُّصوصُ وقُطَّاعُ الطريقِ أن يُؤْذوا المارَّة أو يعتدُوا على أموالِهم .

وكانت هذه البلادُ متحضرة ، وغنية ، وراقية .

ولكن النعمةَ التى كان فيها هؤلاء الناسُ قد جعَلَتْهُم ينسَون أن يَشْكُروا اللّه عليها ، وأن يقْنَعوا بها ويَرْضوا ، فقالوا : يا ربّ ، إنَّ هذه البلادَ المُتقارِبَةَ تحرِمنا لذَّةَ السفَرِ الطويل ، ولو كانت متباعدةً لكان السفرُ بينها لذيذا ومُمْتِعا ! أما هذا التقاربُ فهو مُمِلٌّ مُسئم .

قالوا هذا الكلامَ بدلا من أن يشكُروا اللّه عا النِّعَمِ العظيمَةِ التى أعْطاهُمْ إياها ، فجازاهُم اللّه بـ حطَّمَ السُّدود التى تحجُزُ وراءَها مياهَ الخزانِ العظي فصارت سُيُولا أغرَقَتْ هذه البلاد ، كالطوفا فهربَ الناسُ منها مفزوعين ، وتفرَّقُوا فى الشّ

من بلادِ العرب ، وتحولت تلك المدنُ إلى جهاتٍ صَحْراوِيَّةٍ مُجْدِبَة ، لعدم وجودِ الماء . وبدلاً من أن تنْبُتَ فيها الحدائقُ والجناين المثمرة بأحلى الفواكِه ، صارت لا تُنْبتُ إلا أشجارا مُرَّةَ الثِّمار ، أو مملوءَة بالشَّوْكِ . وقليلاً من أشْجارِ النَّبْق .

وذلك جزاءُ من يَكْفُرُ بنِعْمةَ اللَّه ، ولا يَشْكُرُه على ما أعْطاه .

٥

كان رجُلان صَديقَيْن ، وكان أَحدُهما غَنيًّا كبيرَ الثَّروَة ، وقد أَعطاهُ اللّه حديقَتَيْنِ كَبيرَتَيْن مِنْ كُرومِ العِنَب ، بينَهُما حقولٌ واسعة ، يُرْويها نهرٌ دائمُ الْجَريان .

وقد أَثْمرَتِ الحديقتان ثمرًا جيِّدًا كاملا ، فكانت

عناقيدُ العنب تتدَلّى كأنها اللآلئ البرّاقة عندما تنعكِسُ أشعّةُ الشَّمْسِ عليها ، وكان له كذلك أولادٌ كثيرون أصحاءُ الأجسام جَميلو الوجوه .

وفى يوم دَعا صاحِبَه ليرى الحدائقَ والْحُقول ، وليقضيَا معًا يوما سعيدا ، ونزهةً لطيفة . وبينما هُما يتنزهان بين الحديقتين ، تلفتَ الغَنىُّ إلى مزارعه الواسعة ، وامتلأ قلبُه إعجابا بها ، وامتلأت نفسُه غرورًا بهذا الثراء العظيم ؛ فنَسِىَ أنَّ اللّه هو الذى أَنْعَمَ عليه بهذه النِّعَمِ الجليلة ، وتحرّك لسانُه .

« فقال لصاحِبه وهُو يحاوِرُه : أنا أكثرُ منْك مالاً وأعزُّ نَفَرا » (يعنى لى أهل أكثر من أهلك) . ثم دخلَ إحدى الحديقَتيْن فرأىَ الثّمارَ الناضِجَةِ فيها ، فانتفخَ ونفَشَ وأخذَه الغُرور . فقال : « ما أظنُّ أن تبيدَ هذه أبدًا » (ما أظنها أنها تهلِك أو تفنى » ،

« وما أظنُّ أن الساعةَ قائمةَ » (أى ما أظن أن القيامةَ ستقوم) ، « ولئنْ رُدِدْتُ إلى رَبِّى لأجدَنَّ خيرًا منها مُنْقَلَبا » (يعنى : حتى لو قامتِ القيامة ، فإن اللّه سيُعطينى أحسنَ من هذِه الحديقة ، لأننى غنىّ ، فلا بد أن اللّه سيعطينى بسبب غناى !) .

عند ذلك غضِبَ صاحِبه ـ وكان رجلاً مؤْمِنا باللّه ، ويعتبر نفسه أحسنَ وأفضلَ من صاحِبه الغنىِّ الذى لا يعْرِفُ اللّه ـ غَضِبَ وقال لصاحبه :

ـ أكفْرتَ بالّذى خلقَك من تراب ، وهُوَ الذى جعلك فى بطْنِ أمِّك جنينا ثم سوَّاكَ رجُلا ..

ثم قال له : أما أنا فإننى مؤْمِنٌ باللّه ولا أُشْرِكُ به أحدا ، وكانَ يجب عليك عندما رأيتَ حديقتَك ، أن تتذكَّرَ أن اللّه هو الذى أنعمَ بها عليك ، وأنا أقلُّ منكَ أولادًا وأموالا ، ولكنَّ أمَلى فى اللّه عظيم ، أن

يُعْطِيَنى خيرًا من جنّتك . وما دُمْتَ لم تشْكرِ اللّه على ما أعطاك فاللّه سيأخذُ منكَ نعمته ، ويُهلِكُ هذه الحدائق والزروع ، ولعله يُرْسلُ عليها وباءً يُهْلِكُها أو يُصْبِحُ ماؤُها غوْرا فلن تستطيعَ له طَلَبا .

ولم تمضِ ليلةٌ حتى تحققَ ما قالَه الرَّجُلُ المُؤْمِن ، غارَ ماؤُها فى الأرضِ وجفّ ، وسقطت الثمارُ ، وماتتِ الأشجار .

وذهبَ صاحِبُها المغترُّ لِيرَاها ، فسقط قلبُه ، وهو ينظرُ إليها فيجدُها خرابا ؛ ووقفَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ من الأسَفِ على ضَياعِ ما أنفقه فيها من مالٍ ومن تعب ، وهى محطمةٌ ذابلة . « ويقول : يا ليْتنى لم أُشركْ بِربِّى أحدا » .